الشّفوية والتّدوين في الحكاية الشّعبيّة –بابا إنوفا أنموذجا–

Orality and notation in the folk tale –Baba Anova as a model-

أ. خديجة ريابي‡

د. زهية طراحة§

تاريخ الاستلام:13-07-2021 تاريخ القبــول: 13-09-2021

ملخّص: يعتبر الأدب الشّعبي المرآة العاكسة للصّورة الحقيقيّة لحياة المجتمعات فيُعرف بأنّه " الأدب المجهول المؤلّف، العامي اللّغة، المروي شفاهيّا، المعبّر عن ذاتيّة الطبقات الشّعبيّة الدّنيا، المتوارث عبر الأجيال". فهو غنيّ بالرّموز الّتي تكشف عن تجارب الجماعات، هويّتها، ثقافتها، آمالها، وطموحاتها، تتناقله الجماعات أو الأجيال شفاهيّا (أي الرّواية الشّفويّة)، وينقسم الأدب الشّعبي إلى عدّة أشكال تعبيريّة منها الحكايات (الشّعبيّة –والّتي تعدّ محور دراستنا –أو الخرافية)، الألغاز، الأمثال الأشعار، الأساطير...إلخ.

والمجتمع الجزائري على غرار باقي المجتمعات الأخرى سواء الأوروبيّة أم العربيّة يتميّز بتنوّع ثقافي ولغوي واثنوغرافي، وبالتّالي بتنوع تراثه الشّعبي الّذي يختلف من منطقة إلى أخرى. وقد عرفت الحكاية الشّعبيّة الجزائريّة محاولات عديدة من طرف بعض الباحثين والأدباء الّذين اهتموا بجمعها وتدوينها بغرض حمايتها من الاندثار، لما لها من أهمية في الحفاظ على التّراث الجزائري اللّامادي.

كلمات مفتاحيّة: أدب شعبي؛ حكاية شعبيّة؛ شفاهيّة؛ تدوين؛ تنوّع ثقافي.

---

‡جامعة مولود معمري تيزي–وزّو، الجزائر، البريد الإلكتروني: khadidjariabi@yahoo.fr (المؤلّف المرسل).

§جامعة مولود معمري تيزي–وزّو، الجزائر، البريد الإلكتروني: zteraha@yahoo.fr

Abstract: Popular literature is the mirror that reflects the true picture of the life of societies. It is defined as "literature anonymous, authored, colloquial language, verbally narrated, expressing the subjectivity of the lower popular classes, passed down through the generations." It is rich in symbols that reveal the experiences of groups, their identity, culture, hopes, and aspirations, transmitted orally by groups or generations (i.e. the oral narration), and popular literature is divided into several expressive forms, including tales (folk - which are the focus of our study - or superstition), mysteries. Proverbs, poems, myths ... etc. And Algerian society, like other societies, whether European or Arab, is distinguished by cultural, linguistic and ethnographic diversity, and thus by the diversity of its popular heritage, which varies from one region to another. The Algerian folk tale has known many attempts by some researchers and writers who have taken care to collect and write it with the aim of protecting it from extinction, because of its importance in preserving the intangible Algerian heritage.
Keywords: Folk Literature; The folk tale; Oral; Blogging; Cultural diversity.

1. المقدّمة: يعدّ الأدب الشعبي فضاء مفتوحا على الثقافة الشعبية كونه يغوص في أعماق التراث، من خلال التعرض إلى العادات والتقاليد والمعتقدات وأخلاق الشعب أو المجتمع، فمفهوم الأدب الشعبي يرتكز على فكرة الشيوع والرواج بين العامة والمراد بها تلك الجماعات المحلية التي تنتمي إلى مجال سكني محدد: مدينة حي، ريف، جزيرة، أو جبل...إلخ، تربط بين أفرادها روابط مختلفة: دينية عرقية مهنية، قرابية،...

وقد تمّ تداول هذا النّمط من الأدب بقليل أو كثير من الاسهاب من طرف الدّارسين يجدر بنا التّذكير ببعض سماته المختزلة في عدد من العناصر[1] والّتي تتمثّل في لغته العامّيّة، ومحتواه الثّقافي المعبّر عن قيم الجماعة ومتماثلتها والعاكس لتجربتها وخصوصياتها، وتداوله الشّفاهي في نطاق الجماعة أو خارجها، ونقله من

السّلف إلى الخلف، مما يضمن ديمومة النّصّ ورواجه، وتعتبر مجهوليّة مؤلفيه (النّصّ الحكائي الشّفاهي) من أهمّ سمات الأدب الشّعبي. فما مفهوم الحكاية الشّعبيّة؟ وما مدى توافق الحكاية الشّفويّة مع الحكاية المدوّنة؟ إلى أي مدى حافظت الحكاية المدوّنة على خصائص الشّفويّة؟ وما خصائص الحكاية الشّعبيّة الشّفويّة في حكاية بابا انوفا؟ ولتحليل مقالنا ارتأينا استعمال المنهج التّحليلي لأنّه الأنسب لتحليل هذا النّوع من المدوّنات.

2. تعريف الحكاية الشّعبيّة: لقد عرفت الشّعوب منذ العشائر القديمة حتى يومنا هذا أنماطا مختلفة من القصص الشّعبي منها الأساطير، والسير والألغاز والأمثال والحكم والحكايات الشّعبيّة هذه الأخيرة الّتي احتلّت مكانة عظيمة بين الأفراد لارتباطها بهم وبمعتقداتهم ومهما اختلفت إلاّ أنّها تبقى الذّاكرة الشّعبيّة الّتي ترصد لنا مجموعة من السّلوكيّات الاجتماعيّة والسّياسيّة والاقتصاديّة للأفراد، تلك السّلوكيّات التي تحمل في مضمونها الكثير من القيم الأخلاقيّة الّتي تسعى الحكاية من ورائها إلى تحقيق أهداف إنسانيّة وأخلاقيّة متعددة.

1.2 لغة: الحكاية من المحاكاة، الحكاية: كقولك حكيت فلانا وحاكيته فعَلت مثل فعله أو قلت مثل قوله سواء لم أجاوره وحكيت عند الحديث حكاية، يقول ابن سيّدة: وحكوت عنه حديثا في معنى حكيته وفي الحديث: ما سرّني أنّي حكيت إنسانا وإن لي كذا أي فعلت مقل فعله يقال: حكاه وحاكاه، وأكثر ما يستعمل في القبيح المحاكاة، والمحاكاة المتشابهة، تقول: فلان يحكي الشّمس حسنا ويحكيها...[2]

2.2 اصطلاحا: لقد استأثرت الحكاية الشّعبيّة اهتماما منفردا من الباحثين في علم النّفس الاجتماعي وعلم النّفس الثّقافي والأدب الشّعبي والأنثروبولوجيا بوجه عام لأنّ جميعهم وجد ضّالته فيها على اعتبار أنّها قاسم مشترك بين أفراد المجتمعات من جهة، لأنّ جميع الشّعوب قد عرفتها وتناقلتها جيلا عن جيل، فهي تعبّر عن الرؤى الشّخصيّة المتداولة وعن الذاكرة الجماعيّة الّتي تسمح للراوي بالتّعبير عن نفسه وأشباهه في مجتمعه من المستمعين بالتّحليق في عالم الخيال والأحلام.[3]

يعرّفها سعيدي محمد بأنّها: "محاولة استرجاع أحداث بطريقة خاصّة ممزوجا بعناصر كالخيال والخوارق والعجائب ذات طابع جمالي تأثيري نفسيّا واجتماعيّا

وثقافيّا". ويعرّفها في موضع آخر بـ" أنّها وصف لواقعة خياليّة أو شبه واقعيّة أبدعها الشّعب في ظروف حياته، سجلها في ذاكرته ورواها أفراده لبعضهم البعض بمرور الأيام، توارثوها فيما بينهم عن طريق المشافهة من أجل المتعة والتّسليّة". [4]

أمّا المعاجم الإنكليزية فعرّفتها بأنّها: حكاية يصدقها الشّعب بوصفها حقيقة، وهي تتطوّر مع العصور، وتتداول شفاها، كما أنّها قد تختص بالحوادث التّاريخيّة الصّرف أو الأبطال الّذين يصنعون التّاريخ.[5]

يعتبر مفهوم الحكاية الشّعبيّة بمعناها الشّامل والواسع سياقة أحداث واقعيّة حقيقيّة أو خياليّة دون الالتزام بأسلوب معيّن في الحكي تختلف من فرد لآخر من حيث الطّريقة الّتي تسرد بها الأحداث، في حين أنّ الحكايات تتضمن مجموعة من الأحداث والأخبار والأفعال والأقوال سواء كانت حقيقة أي مأخوذة من الواقع الّذي يعيشه الفرد أم المبدع الشّعبي ليصوّر الأحداث الّتي تشكّلت في مخيلته ويريد سردها في قالب فنيّ حكائي لإضفاء نوع من المتعة والتّشويق على الحكاية ليستمتع بها المتلقي.[6] وفي اللّغة الفرنسيّة نجد ما يقابل الحكاية مفردة (Légende) وهي تعني قصّة شعبيّة أو حكاية ذات أصول شعبيّة أحداثها تاريخيّة الأصل وهي مرتبطة أساسا بحياة الافراد والفئات الاجتماعيّة الشّعبيّة. أي على عكس ما هو متداول في اللّغة العربيّة إذ تحيلنا كلمة (Légende)الفرنسيّة إلى كلمة خرافيّة أو أسطورة وهذا ما جعلنا نوظّف كلمة حكاية شعبيّة للحفاظ على وحدة وخصوصيّة المصطلح الشّعبي.[7]

أمّا في المعاجم الألمانية تعرّفها بـ: " أنّها الخبر الّذي يتّصل بحدث قديم ينتقل إلينا عن طريق الرّواية الشّفويّة من جيل إلى جيل، أو هي خلق حر للخيال الشّعبي ينسجه حول حوادث مهمّة وشخوص ومواقع تاريخيّة. وفي الأخير يمكننا القول بأنّ هذا الكمّ الهائل من التّعريفات المتعلّقة بالحكاية الشّعبيّة قد رسخ في أذهاننا أمرين هامين أوّلهما يتعلّق بأهميّة هذا اللّون الأدبي المعنون بالحكاية الشّعبيّة ومدى ارتباطه بحياة الأفراد اليّوميّة، الأمر الذي جعل الكتّاب والباحثين يقبلون عليها بالدّراسة والتّأليف والجمع، أمّا الأمر الثّاني فيتعلّق بالحكاية الشّعبيّة في حدّ ذاتها وكيف أصبحت لونا إنْ لم نقل فنّا أدبيّا شعبيّا قائما بحدّ ذاته، له خصوصياته من النّثرية

والسّرديّة والشّفاهيّة المقدمة بلغة يتخاطب بها الشّعب ألاّ وهي العامية الّتي يعبّر من خلالها _أي الشّعب_ عن أحلامه وآماله من هذه الحياة.

3. نشأة الحكاية الشّعبيّة: لمعرفة نشأة الحكاية الشعبية كان لابد على الفولكلوريين الأوائل الإجابة على مجموعة من الأسئلة ومن بينها مثلا: أين وجدت الحكاية؟ وكيف يفسر التشابه بين الحكايات المختلفة في المجتمعات المتباعدة؟ وإلى ماذا يعود هذا التشابه هل ملاذه نفسية الإنسان البّشري او وحدة الحدث التّاريخي؟ أو هل يمكن تفسيرها عن طريق الانتشار؟[8]

اعتبرت أعمال الاخوة جريم (جاكوب جريم ووليام جريم) بأنّها واضعة الأساس لدراسة الخرافات والقصص الشّعبية وقد جعل هذان الاخوان من الحكاية زادا ليس للشّعب الألماني فحسب بل للعالم كله.[9] وجاء بعد ذلك ثيودور بنفي(Theodor) Benfy صاحب النظرية الهندية أو الانتشار فقد تتبع الطريق الذي سلكته الحكاية الشعبية الهندية شرقا وغربا في الآداب المختلفة وتوصل إلى نظرية مفادها ان الحكايات الشعبية نشأت أصلا في الهند ثم انتشرت غربا إلى أوروبا عن طريق الانتشار، وسلم بأن الحكايات يمكن أن تنتشر من خلال هجرات الناس، كما لاحظ أنّها انتشرت شفاها في أوروبا والصين.[10] ويعتقد جريم Grimm أن هذا التشابه من الممكن أن يكون وليد الصدفة فيقول: "توجد مواقف بسيطة وطبيعية للغاية، لذلك توجد في كل مكان، مثلا: هذه الحكايات تتكّرر وتتماثل بلغات مختلفة لا توجد أيّة صلة بينها، وذلك لأن شعوبا مختلفة قَلدت بالطريقة نفسها أصوات الطبيعة". فهذه النظرية تفترض وجود مواقف ومصالح ودوافع مشتركة للبشر ويرى جريم أنّ الحكايات المتعددة والمتشابهة في مختلف الأماكن لا تربط بينها أية صلة وإنما هي افتراضات يتقبلها كل إنسان على اختلاف الديانات المسلمة أو المسيحية وغيرها...

إلاّ أنّ نوبل كوسكين(Cosquin) ينفي هذا الرأي، ويؤكد رفضه لنظرية جريم (Grimm) فيقول: "إنّ اقتناعي بأنّ هذا مستحيل الحدوث يزيد ويتأكد أكثر فأكثر فهذه النظرية لا أساس لها، فإذا قابلنا بين الشرق والغرب حكايات متشابهة فهذا يعني أن الأصل واحد ثم انتشر من بلد إلى آخر".[11] وبعد كلّ هذه البحوث والمحاولات من طرف الباحثين من أجل تحديد أصل وعمر الحكايات الشعبية تاريخيا، إلّا أنهم لم

يتمكنوا من ذلك خاصّة الشفاهية التي ترتكز عليها، فالحكايات مرتبطة بنشأة الإنسان ووجوده منذ البداية، ورغم التطور إلاّ أنها مرنة تساير هذا الركب فتأخذ طابع البيئة المحيطة وما يتعلق بقضاياها الاجتماعية والسياسية والثقافية والنفسية والدينية. بالإضافة إلى أن الأوساط الشعبية كانت أمية في بداياتها وهي ظاهرة ساعدت على انتشار القصة العربية الشعبية، وهذا ما جعلها تفضل الجانب الشفهي على الكتابي مما كان له الأثر الكبير في انتشار القصة الشعبية في المغرب وانتقالها عبر الأجيال.

4. أنواع الحكاية الشعبيّة: تستمد الحكاية الشّعبية من الواقع المعيش السّائد بين الحاكم والمحكوم، وبالتالي تطرح إشكالية تحديد أنواع الحكاية الشعبية، فهل هي عبارة عن أمثال وحكم أم مجموعة من النّكت أو الشعر أو الألغاز أم هي عبارة عن حكاية خرافية أو حكاية هزلية أو حكايات الواقع الاجتماعي، فالحكاية الشّعبية بكلّ أنواعها هي عبارة عن سرد لوقائع تاريخية اجتماعية حاملة لقيم أخلاقية تربوية.

هناك أنواع كثيرة من الحكايات الشّعبيّة، تمّ تصنيفها انطلاقا من نصوصها والاعتماد على عناصر داخلية مختلفة، كالأبطال الخوارق والجن والحيوان...إلخ، إنّ هذا الاختلاف حول أنواع الحكاية الشّعبية نتيجة التداخل بين عناصرها جعل الكتاب والباحثين في هذا الاختصاص يتوجهون إلى وضع أنواع لها، كل حسب رأيه واهتمامه بعناصر النص، منهم من يذهب إلى حصر الحكاية الشّعبية في الأشكال التالية:

1 –الحكاية الغريبة المثيرة للخيال.

2 –الحكاية الأسطورية المعنية بالجنيات وهي موجهة للصغار وللطبقة الشعبية...

3 –الحكاية الواقعية.

4 –الحكاية الماجنة التي تكشف عن العلائق الحميمية بين الجنسين.

5 –الحكاية الكلية.

6 –الحكاية الغنائية.

7 –الحكاية الفخرية.

8 الحكاية الهجائية.[12]

صحيح أن هذه الأنواع حاول صاحبها من خلالها ضبط أصناف للحكاية الشعبية لكن لا يمكننا أن نحصر كل الحكايات الشّعبية في هذه الأنواع لأنّ بعضها يتداخل في البعض والكثير منها يمكن تصنيفها في أكثر من نوع، ولذلك يبدو التصنيف أمرا لا يخلو من تعسف. إنّ نص الحكاية الشعبية يتقاطع مع أشكال التعبير الشعبي الآخر كاللغز، والمثل، النكتة، الشّعر، وقد أسفر هذا التّقاطع على ظهور نصوص مختلفة امتدت معطياتها الشّكلية والدلاليّة من هذا التّناص الجنسي فظهرت نصوص حكائية مثلية ونصوص حكائية شعرية، ونصوص حكائية لغزية وأخرى نصوص حكائية نكتية. إذن فالقصّة الشّعبيّة بسيطة لأنّها تعبّر عن عقلية الشّعب ومزاجه البسيط الذي يهتمّ بالنتيجة لا بالوسائل المعقدة، وعموما فإن مميزات القصّة نجمعها في النّقاط التّالية:

- السرد المتحرّر من الواقع بالاعتماد على العجائب والخوارق؛
- ايجاز خصائص الشّخصيات في خيوط عامّة ومرموقة؛
- الاكثار من الأحداث والمغامرات؛
- الاعتماد على التّبسيط والجنوح إلى المعنى الرمزي؛
- الابتعاد على الخوض في التّفاصيل لتبقى الحكاية بعيدة عن الواقع؛
- اظهار شخصية البطل شاحبة الملامح متمثلة لمعاني البطولة والمهارة أو الحيلة أو القوة وذلك لجلب الانتباه؛
- تضمين الحبكة دلائل فلسفية وخلقية من شأنها أن تؤثر في نفوس القراء والسامعين.[13] إنّ هذه المميزات سمحت فيما بعد بإعطاء تصنيفات كثيرة للحكاية الشعبية كما عكست الجمالية الفنية للنص الحكائي الشعبي، خاصة ما تعلق منه بالجانب السردي الذي يثبت غلبة الخيال الشعبي الجميل، الأمر الذي طبع الأدب الشعبي عموما بعنصر الخيال الخلاق خلافا للذاتي منه الذي هو غالبا أدب تجريدي يتقاسمه الواقع والخيال، فسمات الحكاية الشعبية هذه خولت لها مكان الصدارة على معظم أشكال الأدب الشعبي، بل وجعلتها الأكثر انتشارا، لأنها نتاج ابداع مخيلة شعبية اعتمدت البساطة، والبساطة في نسج أحداثها ووقائعها.

5. **الحكاية الشّعبيّة ومسألة الشّفاهيّة:** الأدب ليس كل ما هو مكتوب كما هو متعارف عليه عند معظم الدارسين وقد نجد الأدب الشفهي هو أيضا أدب حامل لفنيات وجماليات تجعل منه أدبا قائما بذاته والدراسات برهنت على أن آداب الشعوب هي آداب شفوية أي منطوقة ذات جماليات وفنيات تعبر فيها الجماعة عن نفسها.

اعتمدت الشّعوب البدائية الشّفهيّة واعتبرتها وسيلة تواصل بينهم، تعتمد على المباشرة اللّغوية في إنتاج وتلقي خطاباتهم وتتميز بالعفوية والتلقائية، وعليه أصبحت الكلمة المنطوقة هي المسيطر الوحيد والقوة الفعالة في تجسيد أفعالهم وأعمالهم لما لها من قدرة في تحقيق التواصل والترابط الاجتماعي "فالصوت له الدور في الحفاظ على المجتمعات البشرية والذي غدا اليوم أمرا ثابتا لا جدال فيه، ذلك لأنّ مجموع ما يسمى بالمأثورات الشفهية لمجتمع ما يشكل فيه شبكة من المبادلات الصوتية التي تمثل أعرافا وتقاليد سلوكية ثابتة بدرجة أو بأخرى وتتمثل وظيفتها الأولى في تأمين استمرار إدراك الحياة".[14]

تنخرط الحكاية الشعبية إذن في ظاهرة الشفهي التي لم تُعن كثيرا بنظريات الأدب فكان هدفها التعبير بعفوية عن الشعب والمحافظة على سروده المتوارثة " وإذا تمعنا في الاهتمام بهذه الظاهرة نلحظ أنها توسعت في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين في أوروبا من أجل نظرة تاريخية ... وتمت عمليات الجمع الكبرى في فرنسا من قبل اثنولوجيين...أو مهتمين محليين"[15]. ومن أعظم الحكايات التي كانت تروى مشافهة حكايات: الاسكندر الأكبر في الشرق الأدنى، وجمع بعضها إلى بعض في مخطوطة في الإسكندرية على وجه الاحتمال"

وعلى ضوء هذه العلاقة يمكن لنا أن نقّر بتلك المواهب القولية والصوتية التي تبناها الانسان الشعبي منذ القديم في بناء حواراته وحكاياته، مستعينا بوسائل الأداء الشفهي وما وصلنا من الأقاصيص الشعبية المصرية القديمة يدلنا على عراقة الأدب الشعبي الشفاهي عندنا، فقد وصلتنا نماذج من الأقاصيص المصرية ترجع إلى القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد". [16]فالإبداع الشفاهي الذي لا شكل خارجي ثابت له كان عليه _على مر القرون_ أن يخلق لنفسه وسائل تقليدية تساعده على أن يحفظ بالذاكرة موضوعات شديدة التعقيد، وكانت هذه الوسائل التقليدية في الأسلوب والبلاغة

تساعد على تذكير النصوص من جهة، وتسهم في إعادة تشكيل وخلق نصوص جديدة عن طريق الارتجال من جهة ثانية" [17]. وعلى ضوء ذلك يحاول الراوي جاهدا ترسيخ وتقوية ذاكرته عن طريق مجموعة من الوسائل كاستعادة الحكاية باستمرار وتوفير طقوس إلقائها وإحداث إيقاع موسيقي وتعبير جسدي، وانطلاقا من هذا كله تتمحور قدرة الشفهي في الحفاظ على الذاكرة الجماعية والتواصل الشعبي دون وسائط، وعليه فالتّعبير الشّفهي هو حوار حقيقي بطريقة مباشرة وبشكل مستمر يظهر جليا في الحكاية الشعبية التي نقلت من قبل رواة بطريقة تشمل التسلية والمتعة والمعرفة والحكمة على مر الأجيال بعفوية في الالقاء وأمانة في الأداء.

وعلى صعيد آخر اهتم الرّواة بمسألة المحافظة على الموروث الشّفهي واتّخذوا منها طابعا مقدسا يحفظ إرث أجدادهم، حيث اجتاز كلّ القيود وظل صامدا، الأمر الذي يؤكد أهمية الدور الذي تلعبه الرواية الشفوية في تشابه التراث الشعبي في جميع أنحاء العالم بسبب التأثير والتأثر، التغيير والتبديل، الذي انجرّ عنه تمازج الحكاية الشعبية بالأساطير والسيّر العالمية.[18] وممّا لا شك فيه أنّ الرواة هم من ساعدوا على صمود الحكاية الشعبية ووصولها إلينا عبر العصور المختلفة من مناطق العالم بحيث لعبوا دورا بارزا في بقاء الحكاية حية، وباختفائهم اختفت الحكاية الشعبية.

في الأخير يجب على الراوي إبقاء نص الحكاية على حاله دون تغيير تماما كما يحافظ على الدين الذي هو توثيق من عند الله، فتجريد الحكاية من لغتها، حالها حال تجريد الجسد من الروح الذي يمثل المجموعة الجماعية، فلا يحق لنا تبديلها أو تحويلها حتى لا نطمس تلك الروح النابضة بها، فلذة الحكي تقتضي ألا تقطع النص حاشية من حواشي التصحيف، أو خطأ طباعي أو املائي هنا أو هناك، وإلا فما معنى تحقيق نص حكائي، هو في روحه نص شفاهي، برغم كونه نصا مكتوبا.[19]وعليه ليس الكلام الشفهي وحده الأداة التعبيرية الأساسية لهذا الفن وإنّما اصطحابه للعديد من التعابير الجسدية التي فيها قدر من التمثيل والتقليد، منحه قدرة كبيرة على التأثير واللذة و المتعة بتلك الإشارات الجسدية كاليدين والعينين والرأس ما أكسبها سحرا خياليا مكنها من الانتشار والخلود عبر العصور.

الحكاية الشعبية الأمازيغية الجزائرية (حكاية بابا انوفا): تعد الجزائر من بين مناطق العالم الثرية بتراثها الأدبي الشعبي، فنجد بها الشعر الألغاز، الأمثال الشعبية الأغاني النسوية، الحكايات الشعبية... وتمثل الحكاية الشعبية بالجزائر عنصرا مهما من عناصر التواصل بين الأجيال، تنتقل من خلالها القيم والعادات وتعطي من خلالها دروسًا لأجيال المستقبل. ومن بين ما يميز الحكاية الشعبية روايتها من طرف الجدات للأحفاد خاصة قبل النوم الذي يُنمي لدى الأطفال القدرة على التخيل والتمثل والتذكر أيضا.

أهم خصائص الحكاية الشّعبية حكاية بابا انوفا:

***الطّابع الشّفهي:** تنتقل الحكاية الشّعبية عن طريق الأشخاص الذين يروونها لأشخاص آخرين، هذا ما يزيدها سحرا وجمالا، فهي تجعل المستمع يتخيل الأشخاص والمواقف وحتى الديكور والألوان والأصوات والنبرات فبذلك يزيد من قوة ورونق الحكاية الشعبية هو صوت وحركات وايماءات الحاكي (أي الجدة) الذي يجعل المتلقي (الأطفال الصغار) يتفاعلون مع حيثيات الحكاية؛

***غياب المصدر:** ليس للحكايات الشّعبية الجزائرية مصدر أو كتاب معين، فكل من يستمع لها يمكنه أن يضيف جزءًا معيّنًا أو موقف أو شخصا معيّنًا كما يمكنه أن يحذف جزءا من روايته لها لأشخاص آخرين، بشرط ألّا ينقص ذلك من سحر الحكاية ورونقها وألّا يخلّ بمعانيها وقيمتها وهذا ما تمّ ملاحظته من خلال دراسة عدة حكايات **بابا انوفا** هو أنّ بعض الرواة جعلوا لها نهاية واضحة والبعض الآخر لم يجعلوا لها نهاية؛

***احتكاك الحكاية الشّعبيّة الجزائرية بالثقافات الأخرى:** نجد في بعض الحكايات الشعبية عناصر ديكور غير موجودة في المناطق الجزائرية، وأسماء وشخصيات غريبة عن المنطقة مما يدل على تأثرها بثقافات أخرى سواء داخل الوطن أو خارجه.[20] وقد سهمت كل من التجارة والحج والسفر والهجرة في احتكاك الثقافة الجزائرية ومن خلال الحكاية الشعبية بالثقافات الأخرى. فنجد مثلا أن بعض الحكايات الأمازيغية تتحدث عن عناصر ديكور غير موجودة في المنطقة القبائلية المتميزة بطابعها الجغرافي الخاص فهي تتميز بسلاسلها الجبلية الصعبة ودروبها

الوعرة ومناخها الشتوي القاسي والثّلوج الكثيفة وصيفها الحار جدا، على عكس ما نجده في عناصر الديكور في الحكايات الصحراوية فالصحراء تتميز بطابع خاص بها أيضا. وكل راوٍ يتمشى مع طبيعة عيشه أثناء رواية الحكاية؛

* **قوّة التّأثير في المتلقّين خاصة الأطفال:** يقول برونو بيتلهايم وهو مختص في التّحليل النّفسي، أنّ الحكاية قادرة على مساعدة الطفل على تحدّي الصعوبات والعراقيل التي قد تواجهه في مراحل نموه ونضجه.[21]فهي تعطيه تلك القوة التي يستلهمها من بطولات الشخصيات الشجاعة التي تحويها الحكايات التي تروى له ومن تحديهم لمختلف الصعوبات التي يواجهونها.

ما يميّز حكاية بابا انوفا هي أنها أسطورة جزائرية أمازيغية بربرية يبلغ عمرها عشرات القرون وهي تروي حكاية سندريلا البربرية –إن صح التعبير–هاته الفتاة التي تعمل طول النهار من أجل والدها واخوتها. إن المتتبع للحكاية الأمازيغية يلاحظ أن هذه الحكاية تحتوي على عبارة بداية وعبارة نهاية أو ختام، فقد اعتمدت الجدات منذ أزمنة غابرة على استهلال رواية الحكاية الشّعبيّة بعبارة " ماشاهو ثلام شاهو ثماشاهوتيو أتسلهوا، سييسم نربي أدنبدو أدفغ أخرون ذاوسارو" وهي عبارة تشد انتباه المستمعين وكأنها تحدث الآن، وهي عبارة تجعل المستمع يحس بعراقة وقدم الحكاية وأصالتها وتحمل في طياتها الحكمة، ويمكن ترجمتها إلى اللغة العربية ب" استمعوا إلى الحكمة تصبحون حكماء، حكاية تكون جميلة نبدأ بسم الله، وتكون طويلة كالحزام". أما عبارة الختام فتتمثل في " ثماشهوتسيو لواد لواد حكيغتس إيوراو نالجواد الشيطان أثيخزو ربي ما نوكني أغيعفو ربي" بمعنى " حكايتي طويلة مثل الوادي قصصتها لأولاد النبلاء، الشيطان يلعنهم الله أما نحن فيعفو عنا". وهي عبارة تذكر المتلقين بوجود حكمة ومغزى في الحكاية وهي تربطهم بالدين من خلال احتوائها الدعاء.

تتدخل هذه الأسطورة لموقف إنساني غير موجود في أي تراث مشرقي، لتقول أنّ والد الفتاة (غريبة) حسب الحكاية اتفق مع ابنته على أن تزّج له أساورها وخلخالها التي تحفظ صوتها فإذا سمعها يفتح الباب لها، تقول (غريبة لوالدها) "افتح الباب يا بابا انوفا، فيقول جلجلي خلخالك وأساورك يا ابنتي غريبة، وهكذا كلما سمع الأب

جلجلة أساور وخلخال غريبة يزيل الدعامة عن الباب فيفتح، فتقدم له ما أحضرت له من طعام وشراب، استمرت هذه التمثيلية لبعض الأيام ولكن ذات أمسية تحوّل كل شيء واكتشف الأمر الغول *واغزن* الذي تمزقت أحشاؤه من الجوع مرّ غير بعيد عن الكوخ" . فالحلي في منطقة القبائل قديم قدم وجود الإنسان، فهو يعتبر من بين العلامات التي استعملها الإنسان لبث الرسائل وتحقيق التواصل مع غيره، فالزخارف التي تحملها الحلّيّ التّقليديّة تتعدى قيمتها الجمالية إلى أخرى أكثر عمقا، فهي تبث لنا من خلال أشكالها طبيعة معدنها وكذا الأعداد التي تحملها رسائل بالغة الدلالة لكنها كانت بمثابة لغة تتكلم إلينا في صمت فالخلخال والأساور التي كانت همزة وصل بين غريبة وبابا انوفا تتجسد في كون الحلي وثيقة تتحدث عن نفس الشخص الذي يضعها دون اللجوء إلى استعمال الكلام، فهذا الدور الإتصالي الذي يضعها دون اللجوء إلى استعمال الكلام، فهذا الدور الاتصالي الذي عرفته الحلي في كل المجتمعات وعلى مر العصور أصبح اليوم غير بارز بسبب تطور نمط اللّغة اللّفظيّة المنطوقة، كوسيلة تبث من خلالها رسائل اتّصالية مدونة تجاه الجماعة التي تعيش فيها ولاستيعاب تلك الرسائل كان على المتلقين فك مدوناتها من خلال تركيز النظر على بعض العناصر المتمثلة في شكل الحلية والطريقة التي تضعها هذه المرأة المرسلة لتلك المعلومات، وللجزء الذي توضع عليه وبعد ذلك إدراك مختلف هذه الشيفرات يقومون بترجمتها حسب سياقهم.

6. **تدوين الحكاية الشّعبيّة:** إنّ الحكاية الشّعبيّة موروث ثقافي شفهي، انتقل إلينا من جيل إلى جيل عن طريق الرواية(La narration) ، ويعد عامل الشفاهية عاملا أساسيا في جمال الحكاية الشعبية وسحرها وتأثيرها، لكنه في نفس الوقت يجعلها عرضة للزوال والاندثار خاصة في ظل التحولات التكنولوجية الحديثة وقبله انتشار التلفزيون الذي أثر على العلاقات الاجتماعية حتى داخل الأسرة الواحدة، ممّا أدى إلى تقلص استخدام الحكاية الشعبية في الأسرة وتعويضها بالأفلام والمسلسلات الدرامية وأفلام الكرتون واليوم بالألعاب الالكترونية والتطبيقات المختلفة فنجد نبيلة إبراهيم وعبد الحميد بورايو ومولود معمري في منطقة القبائل من بين الباحثين في الأدب الشعبي الذين اهتموا بهذا النّوع من الأدب ألا وهو الحكاية الشّعبيّة وحاولوا

جمعها وتدوينها في عدة كتب مثل القصص الشعبي في منطقة بسكرة لعبد الحميد بورايو والوردة الحمرا ء لرابح بالعمري، أما جهود الجزائريين فيما يخص تدوين الثقافة الأمازيغية لمنطقة القبائل، فتعود إلى الباحث سي أعمر أوسعيد بوليفة الذي نشر سنة 1904 ديوان شعر قبائلي يضم أشعار سي محند أو محند، وإلى بلعيد أزار المعروف ببلعيد آث علي الذي دون في مخطوط (1945–1946) بالحروف اللاتينية أجناسا مختلفة من الأدب الشعبي القبائلي، من بينها 11 حكاية أمازيغية، طبع المخطوط سنة 1963 من طرف الراهبين(Dallet و Degazelle) [22].

وتمثّلت تلك الحكايات في: ثماشهوت أو واغزنيو (حكاية الوحش)، أعقا يساوالن (الحبة التي تتكلم)، ثفوناست إيقوجيلن (بقرة اليتامى)، .... بالإضافة إلى أعمال بلعيد آث علي، نجد المجهودات التي بذلتها كل من الكاتبة طاوس عمروش والباحث مولود معمري اللذين جمعا وترجما عددا من الحكايات الشعبية القبائلية إلى اللغة الفرنسية أسفرت تلك الجهود على نشر كتاب" الحبة السحرية" لطاوس عمروش سنة 1966 و"القصص البربرية لمنطقة القبائل" لمولود معمري سنة 1980. وقد أكد مولود معمري أن الحكايات الشعبية كلها شفهية، لكنه من الضروري تدوينها، للحفاظ عليها رغم أن التدوين يعطيها نصف حياة، وكأنها كائنات محنطة لكنها تستمر في الوجود عبر الزمن.[23]

7. خاتمة:

- تشغل الحكاية الشّعبيّة باعتبارها فنّا مشبعا بالقيم الإنسانية والاجتماعية مساحة واسعة في الذاكرة الجماعية لدى شعوب العالم منذ القدم، بحيث ارتبطت بهم ارتباطا وثيقا وهذا لما لها من أهمية بالغة في إمكانية تحقيق الرغبات والخروج من عالم المشاكل إلى عالم تحقيق الأحلام، ومن أهم ما يميزها هي الكلمة التي تجعل منها أدبا شفهيا جماعيا أعطاها ميزة الاستمرارية والتلقائية في التعبير.

- إنّ الحكاية الشّعبيّة هذا الجزء المنسي من تراثنا يعدّ رُكنا مهمّا من أركان التّعابير الشّفهيّة، يحتاج إلى عناية كبيرة وذلك بجمعها وتدوينها ودراستها وإحياء ذاكرتها وتثمين ما تمثّله من رموز ثقافية وقيم إنسانية هذا ما جعل الدارسين يهتمون

بها باعتبارها نمطا من أنماط الأدب الشّعبي الذي يعتبر جزءا لا يتجزأ من "الفولكلور"، هذا الأخير المحصور بين الأقوال والمآثر والأغاني والأمثال والحكايات.

- الحكاية مصدر ومنبع تراثي له لغته الخاصة التي يعبر بها عن نفسه، لغة البيئة، لغة الخيال، لغة العامة، لغة الحكاية، إنها جزء لا يتجزأ منها بل وواجهة من واجهاتها، أهميتها لا تقل عن أهمية المضمون، ورمزياتها تشير للثقافة والمجتمع زمان القصة. وتلتقي مضامين الأجناس القصصية الشعبية بجميع أشكالها وألوانها بمحاور متشابهة تداولتها على مرّ الزمان واختلاف المكان، ترتكز على ما آل إليه الانسان من مشاق في حياته من أجل تحقيق رغباته والبحث عن فضاء عادل ومتوازن، ومن أهم المضامين التي يدور حولها الحكي الشعبي عموما، الصراع الأزلي، الرغبة في البقاء والخلود، النزعة القبلية والعنصرية، وموضوع المرأة إذ يحتل المحور المركزي داخل الحكاية، ولعل ما يميز الحكاية الشعبية عن باقي الأجناس الحكائية الأخرى أننا نلتمس فيها الحس الاجتماعي الواقعي، وتكاد موضوعاتها تقتصر على العلاقات الاجتماعية والأسرية، فهي واقعية بالتجربة اليومية، إذ تخلو من التأملات الفلسفية وتعتمد على أدّق تفاصيل الحياة اليومية وهمومها، إلاّ أنّ هذا لا يعني أنها تخلو من عناصر التشويق والخيال الذي يضفي عليها لمسة جمالية. وبالنسبة للمجتمع الجزائري فمثله مثل باقي المجتمعات الإنسانية، ورث عن أسلافه مادة غنية من الحكايات الشعبية نجدها بمختلف أقطار البلاد، تعكس لنا طريقة تفكير وأسلوب حياة وعادات وتقاليد ومعتقدات الناس، فلا تخلو منطقة من المناطق أو عائلة من العائلات إلا وصدى الحكايات الشعبية حاضر بين أفرادها ومرتسم بمخيلتهم.

- ولعلّ سلسلة الحكايات الشّعبيّة الجزائرية (حكاية بابا انوفا) التي تمّ الحصول عليها من منطقة القبائل تعكس مجموعة من السّلوكيات الاجتماعية الجديرة بالدراسة، بحيث أي سلوك يفهم على أنّه امتداد للواقع وللذّات الشّعبية، ويرسم نظرته للأحداث الجارية في المجتمع، فمهما اختلفت وتنوعت هذه الحكايات إلاّ أنها تشكّل الذاكرة الشّعبيّة الجماعية التي تحمل سلوكيات الأفراد، وتعبّر بشكل واضح عن تفكيرهم الشّعبي، فهو يجسّد ثورة الوعي الجماعي العميق لواقع اجتماعي يبدو متناقضا. كما لم

تقتصر الحكاية الشّعبية على السلوكيات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فحسب وإنما تمتدّإلى تأسيس مواقف رافضة للظلم الاجتماعي والسياسي، كانعدام المساواة وتفشي الطبقية والتفرقة الاجتماعية، وهذا ما عانته الطبقات الشعبية من ظلم حكامها وسيطرة أنظمتها وعلى هذا الأساس اعتبرت الحكاية الشعبية داخل أوساطها الوعاء الذي تحقق بداخله حلمها من مساواة وعدل واستقرار وكل ما يأمله أفراد المجتمع من تحقيق أنظمة مبنية على أساس التفاهم والأخلاق والقيم.

ولو تمعنا في العديد من الحكايات بأنواعها، الخرافية، الواقعية، وحكايات الحيوان وغيرها، لما وجدناها تبتعد عن بث قيمة او رصد موعظة أو نقد موقف توجه به سلوكيات الأفراد أو تشجعهم على التمسك بقيم معينة.

وعليه استخلصنا أهم النتائج التي تم التوصل إليها من خلال دراستنا للحكاية الشعبية نجملها فيما يلي:

– تشكّل الحكاية الشعبية في محتواها نظرة الشّعب الروحية والتقليدية في تحقيق العدل والمساواة من أجل تعميم السلام حتى ولو كان ذلك في شكل خيال وأحلام وطموحات؛

– تهدف الحكاية إلى تنظيم العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية من جهة ومن جهة ثانية ضبط الصراع النفسي وكبح الرغبات الغريزية؛

– استطاعت الحكاية أن تثير سلوكيات اجتماعية وقضايا إنسانية متعددة تحرص من خلالها على غرس القيم الأخلاقية والمبادئ التربوية؛

– تمثّل الحكاية وسيلة لإصلاح عيوب المجتمع بتقديمها دروس تربوية للناشئة ودعوتها لاتباعها، بتحقيق أنظمة مبنية على أساس التفاهم والأخلاق والقيم؛

– تعالج الحكاية الشّعبيّة قضايا اجتماعية متشابهة في جميع ربوع العالم مما يؤكد شموليتها واعتبارها نصا إنسانيا؛

– قدرة الحكاية الشّعبيّة على حمل الواقع الاجتماعي بمختلف أنظمته وتحوّلاته وأشكاله المتناقضة، وتصويره بفنيات وجماليات تجعل منه شكلا قائما بذاته؛

– الحكاية الشّعبيّة أسلوب اجتماعي هدفه أخلاقي، إصلاحي وتوجيهي؛

– تسعى الحكاية الشّعبية إلى دعوة المجتمع إلى التّمسك بوحدته والمحافظة على بناءه الاجتماعي والاقتصادي والسياسي من أجل بناء مجتمع مثالي خال من المفارقات الاجتماعية والصّراعات الطّبقية.

6. قائمة المراجع:

- **المؤلّفات:**

1–غراء حسين مهنا: أدب الحكاية الشعبية، (مصر: الشركة المصرية العالمية للنشر، 1997)، ص17.

2–محمد سعيدي: الأدب الشّعبي بين النظرية والتطبيق، (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1998)، ص58 بتصرف.

3–نبيلة إبراهيم: أشكال التعبير في الأدب الشّعبي، (القاهرة: دار المعارف، 1981) ص119.

4–عمر أحمد مختار: معجم اللغة العربية المعاصرة، (القاهرة: مج 1، عالم الكتاب 2008)، ص54.

5–عبد الحميد بورايو: القصص الشّعبي في منطقة بسكرة دراسة ميدانية، (الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986)، ص43.

6–ثريا التيجاني: دراسة اجتماعية لغوية للقصة الشّعبيّة في منطقة الجنوب الجزائري: وادي سوف نموذجا، (الجزائر: دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع)، ص08.

7–رابح العوبي: أنواع النّثر الشّعبي، (عنابة–الجزائر: منشورات جامعية)، ص40.

8–ياربونت ميشال ايزار: معجم الاثنولوجيا والأنثروبولوجيا، تر: مصباح العمد (بيروت: 2006)، ص46.

9–أ.ل.رانيلا: الماضي المشترك بين العرب والغرب: أصول الآداب الشعبية الغربية تر: نبيلة إبراهيم، (الكويت: عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب 1999)، ص68.

10-أحمد صالح رشدي: الأدب الشّعبي، (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب 2002)، ص25.

11-ابن منظور: لسان العرب، ج3، (لبنان: دار صادر بيروت، 1994) ص273.

12-Youssef Nacib, Aspect du conte et du proverbe amazigh éditions Zyriabe, Alger, 2016, p11.

13-Mouloud Maameri, contes berbères de Kabylie, édition pocket jeunesse, France, 1996, p101 .

14-Hakim Bellal , De la problématique générique dans l'ouvre de Belaid Ath Ali,Actes du 3eme colloque, international sur la problématique des genres littéraires amazighes « définitions,dénominations et classification », université AKli Mohande Oulhadj, Bouira.04-05 novembre 2014, p253.

15-Mouloud Maameri, Contes berbéres de Kabylie, op.cit, p05.

- **المقالات:**

1-سيد حامد حريز: تحديد مفهوم الأدب الشّعبي، مجلة المأثورات الشعبية، العدد 3 1986، ص142.

2-سي كبير أحمد التّجاني: الحكاية الشّعبية في منطقة ورقلة، مجلة الأثر، العدد19 2014، ص127.

3-محمد حسن عبد الحافظ: سيرة بني هلال: الشّفهية ودرس الاختلاف، مجلة الفنون الشعبية، لعدد 79-80، 2008، ص.62

8. هوامش♥:

[1]- سيد حامد حريز: تحديد مفهوم الأدب الشّعبي، مجلة المأثورات الشّعبية، عدد3، مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربية، الدوحة، يوليو 1986، ص 142.

[2]– ابن منظور: لسان العرب، ج3، دار صادر بيروت، لبنان، ط2، 1994، ص273.

[3]– غراء حسين مهنا: أدب الحكاية الشّعبيّة، الشرّكة المصرية العالمية للنشر، الطبعة الأولى، مصر، 1997، ص17.

[4]– محمد سعيدي: الأدب الشّعبي بين النّظرية والتطبيق، سلسلة دروس جامعية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1998، ص 58 بتصرف.

[5]– نبيلة إبراهيم: أشكال التّعبير في الأدب الشّعبي، دار المعارف، الطبعة الثالثة، القاهرة 1981، ص 119.

[6]– عمر أحمد مختار: معجم اللغة العربية المعاصرة، المجلد الأول، عالم الكتاب، القاهرة 2008، ص 54.

[7]– عبد الحميد بورايو: القصص الشّعبي في منطقة بسكرة دراسة ميدانية، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986، ص43.

[8]– سي كبير أحمد التجاني: الحكاية الشّعبية في منطقة ورقلة، مجلة الأثر، الجزائر، العدد 19، جانفي 2014، ص 127.

[9]– ثريا التيجاني: دراسة اجتماعية لغوية للقصة الشّعبية في منطقة الجنوب الجزائري: وادي سوف نموذجا، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، ص 8.

[10]– سي كبير أحمد التجاني: الحكاية الشّعبية في منطقة ورقلة، مرجع سابق، ص128.

[11]– غراء حسين مهنا: أدب الحكاية الشّعبية، مرجع سابق، ص08.

[12]– رابح العوبي: أنواع النّثر الشّعبي، منشورات جامعية، عنابة، الجزائر، (د.ط)، (د.ت) ص40.

[13]– نفس المرجع السابق: ص 40–41.

[14]– محمد حسن عبد الحافظ: سيرة بني هلال: الشفهية ودرس الاختلاف، مجلة الفنون الشعبية، العدد 79–80، القاهرة، ديسمبر 2008، ص 62.

[15]– بياربونت ميشال ايزار: معجم الاثنولوجيا والأنثروبولوجيا، ترجمة واشراف: مصباح العمد، بيروت، الطبعة الأولى، 2006، ص46.

[16]–أ.ل.رانيلا: الماضي المشترك بين العرب والغرب: أصول الآداب الشعبية الغربية ترجمة: نبيلة إبراهيم، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يناير 1999، ص68.

[17]–أحمد صالح رشدي: الأدب الشعبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2002، ص 25.

[18]–نفس المرجع السابق: ص 29.

[19]–نبيلة إبراهيم: أشكال في الأدب الشّعبي، مرجع سابق، ص166.

[20] – Youssef Nacib, Aspect du conte et du proverbe amazigh, éditions Zyriabe, Alger, 2016, p11.

[21] – Mouloud Maameri, contes berbères de Kabylie, édition pocket jeunesse, France, 1996, p101 .

[22] -Hakim Bellal , De la problématique générique dans l'ouvre de Belaid Ath Ali,Actes du 3eme colloque, international sur la problématique des genres littéraires amazighes, « définitions,dénominations et classification », université AKli Mohande Oulhadj, Bouira.04-05 novembre 2014, p253.

[23] Mouloud Maameri, Contes berbéres de Kabylie, op.cit, p05.